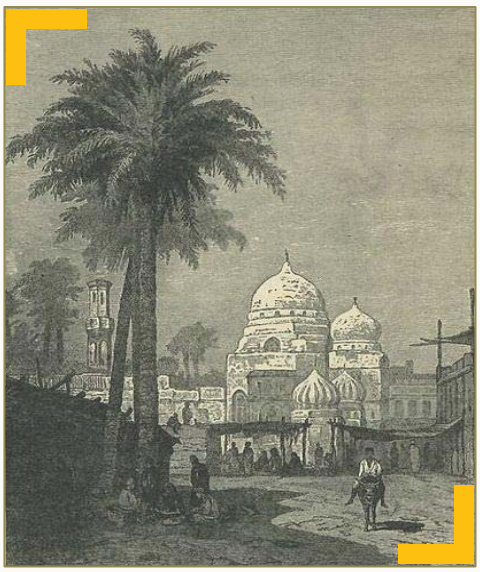

العادات الاجتماعية في الفسطاط وأثرها على البيئة من واقع نصوص المقريزي "السحابة السوداء"

أ. د. فاتن محمد البنداري الشيخ

أستاذ مشارك – قسم السياحة

المعهد العالي للسياحة والفنادق - السيوف

الإسكندرية – جمهورية مصر العربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فاتن محمد البنداري الشيخ، العادات الاجتماعية في الفسطاط وأثرها على البيئة من واقع نصوص المقريزي "السحابة السوداء".- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٦٨ – ٧٢.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخص

تهدف الدراسة إلى إلقاء الضوء على أثر العادات الاجتماعية على البيئة المصرية والمثبتة لدى أقوال المقريزي، ودراستها لاستخلاص الحقائق التاريخية في محاولة منا للوقوف على الأسباب الاجتماعية المتعلقة باستمرار تواجد ظاهرة السحابة السوداء لأكثر من خمسة قرون من الزمان وحتى وقتنا الحاضر، ومحاولة منا لرصد الظواهر والعادات المؤدية لتواجدها، متبعين في ذلك منهج البحث الوصفي والتحليلي، ومقارنة النصوص التاريخية بغيرها من المصادر الأصلية التي تفيد الدراسة.

مُقدّمة

تعتلي الشئون البيئية في مصر بصفة خاصة وفي العالم من حولنا بصفة عامة، مكانة كبيرة من جملة الاهتمامات الخاصة بمجال التنمية السياحية، فالبيئة الجيدة هي أخصب مناخ للتنمية السياحية، كذلك الزائر يتطلع إلى العديد من عوامل الجذب السياحي، ويحرص على الاستمتاع بقضاء وقت طيب والاطمئنان إلي وسلامة بيئة البلد المضيف، فكم من رحلات سياحية قد ألغيت بسبب عدم سلامة الأحوال البيئية للبلد المضيف، سواء كانت المعلومة مغلوطة أو صحيحة، وعليه فإن للبيئة الجيدة الصحية دور هام وأساسي في مجال التنمية السياحية وهو أمر لا جدال فيه.

مشكلة الدراسة

تتلازم العوامل البيئية الجيدة مع التنمية السياحية فهما، وجهان لعملة واحدة ، كذلك فإن للعادات الاجتماعية عظيم الأثر نحو دفع عجلة التنمية السياحية، ذلك أن هناك علاقة مطردة بين سلامة البيئة وسلامة العادات الاجتماعية، فكان ما أورده المقريزي من نصوص تاريخية يثبت أن العادات السيئة للمجتمع تضر بالبيئة مما يترتب عليه العديد من المؤثرات، بل أن العادات الاجتماعية السيئة قد تساعد على تغيير العوامل الجغرافية لذلك الإقليم من حيث المناخ، وقد أورد المقريزي في كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار في هذا الشأن ما استرعى اهتمامنا، ظاهرة السحابة السوداء التي وردت في نصوص من قبل خمسمائة عام وأكثر، فكان استمرار ظهورها في وقتنا الحاضر أمرًا جديرًا بالدراسة.

العوامل الجغرافية والعادات الإجتماعية وأثرها على البيئة

تشير النصوص التاريخية إلى أن عادات المجتمع قد تؤثر بالسلب أو بالإيجاب على البيئة الخاصة بذلك المجتمع، خاصةً إذا اجتمع ذلك مع العوامل الجغرافية. فقد أورد المقريزي[١] عند ذكره ما قيل عن مدينة الفسطاط[٢] بقوله "والمدينة الكبرى اليوم بأرض مصر ذات أربعة أجزاء، الفسطاط والقاهرة[٣] والجزيرة والجيزة، وبعد هذه المدينة عن خط الاستواء ثلاثون درجة، وجبل المقطم في شرقها وبينها وبين مقابر المدينة، وقد قال الأطباء[٤] أن أردأ المواضع ما كان الجبل شرقيه، يعوق ريح الصباغة، وأعظم أجزائها هو

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الفسطاط، ويلي الفسطاط من الغرب، النيل، ... ومتى نظرت إلى الفسطاط من الشرق أو من مكان آخر عال رأيت وضعها في غور، وقد بين أبقراط أن المواضع المنسفلة أسخن من المواضع المرتفعة، وأردأ هواءً، لاحتقان البخار فيها ولأن ما حولها من المواضع العالية يعوق تحليل الرياح لها، وأزقة الفسطاط ضيقة وشوارعها ضيقة، وأبنيتها عالية، وقال .... إذا دخلت مدينة فرأيتها ضيقة الأزقة مرتفعة البناء فاهرب منها لأنها وبيئة ... أن البخار لا ينحل منها كما ينبغي لضيق الأزقة وارتفاع البناء".[٥]

ويتضح من نص المقريزي أن مدينة الفسطاط هي من أشهر مدن مصر وأنها مرتفعة الحرارة في فصل الصيف وأنها تطل على النيل من الجهة الغربية، إلا أن وجود جبل المقطم قد أفسد عليها ريحها مستندًا على ما أورده الأطباء بضرورة البعد عن الأماكن التي تقع الجبال في جهتها الشرقية، فكان ذلك حال الفسطاط مع جبل المقطم الذي يقع في شرقها، كذلك يتضح أن موضع الفسطاط الجغرافي وكونه في جزء منخفض مما يجعل هواءها ساخنًا وغير متجدد بالإضافة إلى ضيق أزقتها وكثرة الازدحام بها.[٦] فهذا من حيث الموقع والمناخ، أما من حيث تقسيم البناء الخاص بالفسطاط فيفهم من قول المقريزي، أن الأبنية العالية والشوارع والأزقة الضيقة تعوق تجدد الهواء بالشكل الكافي.

وعن تطور آخر لأثر العادات الاجتماعية على البيئة يذكر المقريزي بقوله: "ومن شأن أهل الفسطاط أن يرموا ما يموت في دورهم من السنانير والكلاب، ونحوها من الحيوان الذي يخالط الناس، في شوارعهم وأزقتهم، فتعفن فتخالط عفونتها الهواء، ومن شأنهم أن يرموا في النيل الذي يشربون منه فضول حيواناتهم وجيفها ... وربما انقطع جري الماء فيشربون منه ... وفي خلال الفسطاط مستوقدات عظيمة يصعد منها في الهواء دخان مفرط".[٧]

ويفهم مما سبق؛ أن اجتماع العادات الاجتماعية الرديئة مع العوامل الجغرافية المتمثلة في انخفاض الأرض مع ارتفاع درجات الحرارة مما يؤثر بالسلب على العوامل البيئية، فكان من عادات المصريين زمن المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ من استخدام النيل بشكل سيء رغم شربهم لمياهه، كذلك كثرة المستوقدات، لعلها التي تستخدم لطهي بعض الحبوب والأطعمة أو في بعض الصناعات، مما يكثر الدخان الصاعد منها، هذا إذا أضفناه لما سبق فإن ذلك يوضح مدى الأثر السلبي على البيئة في فسطاط مصر زمن المقريزي.

وقد أورد المقريزي ما هو جدير بالاهتمام كما هو جديد بالدراسة عن ظاهرة "السحابة السوداء" في مدينة الفسطاط بقوله: "وهي أيضا كثيرة الغبار لسخانة أرضها ، حتى أنك ترى الهواء في أيام الصيف كدرًا، يأخذ بالنفس ، ويتسخ الثوب النظيف في اليوم الواحد ... ويعلوها في العشيان خاصة في أيام الصيف بخار كدر أسود وأغبر ، سيما إذا كان الهواء سليما من الرياح ... فيتولد أذاً في البدن من هذه الأعراض ، .... وأن المواضع المكشوفة في هذه المدينة هي أصح هواء".[٨]

ولنا وقفة هامة عند هذا النص خاصةً عند قوله: "الهواء في أيام الصيف كدرًا ... خاصة في أيام الصيف بخار كدر أسود"، معنى ذلك أن ظاهرة السحابة السوداء المنتشرة في وقتنا الحاضر في مصر خاصة بالقاهرة، هي ظاهرة عرفها المجتمع المصري قبل حوالي خمسمائة عام أي زمن المقريزي الذي توفى في عام ٨٤٥هـ. فالمقريزي يرجع سبب ظهور السحابة السوداء إلى كثرة الغبار، وسخونة الأرض، ومع عدم تجدد الرياح لوجود جبل المقطم في جهتها الشرقية كما سبقت الإشارة، هذا بالإضافة إلى سوء العادات الاجتماعية لدى بعض الأهالي بالفسطاط في ذلك الوقت من حيث الاستخدام السيئ للنيل، وعفونة المياه في بعض المواضع نتيجة لإلقاء مخلفاتهم في مياه النيل، واختلاط مياهه بما يلقي فيه من حيوانات قد نفقت، كذلك إقامتهم للمستوقدات ذات الحرارة الشديدة، والدخان المتصاعد، فكان اجتماع ذلك كله سببًا عند المقريزي لظهور ظاهرة السحابة السوداء في الفسطاط في ذلك الوقت.

ويرى المقريزي أن سكان منطقة القرافة في ذلك الوقت أفضل حالاً من سكان الفسطاط، وذلك لأن جبل المقطم يحول بينهم وبين البخار الصاعد من الفسطاط. أما عن اختيار سكان مصر للشريط الضيق لنهر النيل منذ القدم، فعن ذلك يذكر المقريزي: "وأردأ موضع في المدينة الكبرى هو ما كان من الفسطاط حول الجامع العتيق إلى ما يلي النيل والسواحل"،[٩] وفي موضع آخر يوضح أن أهل الفسطاط قد قصروا بناءهم عليها. ثم يكمل المقريزي أن العلة في اختيار قدماء المصريين عاصمتهم القديمة في موضع بعيد عن الفسطاط نابع من درايتهم بأنها لا تصلح للمعيشة لفساد هوائها، فوقع اختيارهم على منف أو الإسكندرية وغيرهما من المواضع لسلامة هوائها.[١٠]

وقد أورد المقريزي نقلاً عن ابن سعيد بقوله: "وهي مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها ... وترابها تثيره الأرجل وهو قبيح اللون تتكدر منه أرجاؤها ويسوء بسببه هواؤها ، .... ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة". وقد ورد عن ابن حوقل عن الطبيعة المناخية للفسطاط: "الفسطاط مدينة حسنة ينقسم النيل لديها وهي كبيرة نحو ثلث بغداد .. إلا أنها .. سبخة الأرض غير نقية التربة، وتكون بها الدار سبع طبقات وستاً وخمساً وربما يسكن في الدار المائتان من الناس ومعظم بنيانهم بالطوب". ويفهم من نص كل من المقريزي وما أورده ابن حوقل[١١] أن طبيعة التربة في مدينة الفسطاط تميل إلى السواد، فإذا جاءت الرياح اختلطت مع ما تكدر من التربة فتصعد في سماء الفسطاط فتصبح غير نقية الأجواء، وهو ما يُعرف بالسحابة السوداء.

أما فيما يتعلق بالتكوين البنائي لمساكن أهل الفسطاط فإنهم كانوا يستخدمون القصب والقش عند البناء مما يعفي قش الأرز

دورية إلكترونية .مُحكَمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

من إحراقه فهو ليس السبب في ظهور السحابة السوداء، فقد كانت السحابة السوداء ظاهرة معروفة في سماء الفسطاط رغم عدم إحراق القش حيث كان القش يستخدم كأصل مكونات البناء. ومما هو جدير بالدراسة؛ تلك الأبيات الشعرية التي تصف فصل الصيف في مصر في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي من واقع الطبيعة البيئية في الأدب المصري، فيصف ابن وكيع فصول السنة الأربعة ويبدؤها بوصف فصل الصيف بقوله:

أما المصيف فاستمع ما فيه ... من فطن يفهم سامعيه
نهاره مقسم بين قسم ... جميعها يعاب عندي ويذم
يلصق منه الجسم بالثياب ... وتعلق الأذيال بالتراب
حتى تراها مثل منديل الغمر ... فيهن تخطيط كالحبر
حر يحيل الأوجه الغرانا ... حتى ترى الروم حبشانا
يعلو به الكرب ويشتد القلق ... وتنضح الأبدان منه بالعرق[١٢]

ويفهم من الأبيات السابقة فيما يخص الطبيعة البيئية لمصر في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أن فصل الصيف من أكثر فصول السنة سوءً لدى الشاعر لشدة الحرارة، فاليوم مقسم عنده ما بين سيء وأسوأ، حتى أن الثياب تتسخ ويعلق بها التراب وأن من شدة السوء يصبح الثوب الأبيض بمجرد ارتدائه متسخًا، وأن حرارة الشمس تحول من كان ذا بشرة بيضاء مشربة بالحمرة إلى صاحب بشرة سوداء، وأن السماء يعلوها مثل السحابة السوداء التي أطلق عليها اسم "الكرب"، فكونه شاعرًا شبة السحابة السوداء لقتامتها بالكرب.

أما عن أثر أساليب الحياة المعيشية على البيئة من واقع نصوص المؤرخين، فكان ما نقله المقريزي في خططه نقلاً عن ابن سعيد: "تشوقت إلى معاينة الفسطاط .. فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة للركوب، لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لي بمثلها في بلد، .. وأشار إلى أن أركب حمارًا.. فأنفت من ذلك جريًا على عادة ما خلفته في بلاد المغرب، فأعلمني أنه غير معيب على أعيان مصر... وعندما استويت راكبًا أشار المكاري على الحمار، فطار بي وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي.. فقلت:

رأيت بمصر أشد البوار ... ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفي مكار يفوق الرياح ... لا يعرف الرفق بهمي استطار
وقد مد فوقي رواق الثرى ... وألحد فيه ضياء النهار[١٣]

فيتضح من النص السابق أن باب زويلة بالقاهرة هو المكان المخصص للركوب ووسيلة التنقل المتاحة والمنتشرة للوصول إلى الفسطاط من داخل القاهرة عند باب زويلة. كما أن ابن سعيد قد شعر بالخجل لركوب الحمار، وأوضح عدم اعتياده على ذلك في عاصمة بلاده بالمغرب، وبصرف النظر عن سوء حظه عند وقوعه في يد "المكاري" المتسرع الذي أعطاه انطباعًا سيئًا عن المدينة. إلا أن تكرار وصف سواد التربة والغبار عند ابن سعيد كزائر لمصر وعند نصوص المؤرخين كالمقريزي وعند الأدباء والشعراء مثل ما كان من ديوان ابن وكيع، وغيرهم مما يؤكد على أن عاداتنا السيئة تسيء للبيئة، بل والأعمق أنها تسيء بسمعة البلاد خاصة لدى الزائرين، وهو أمر لا يتفق وسلامة البيئة، وكذلك يخالف ما نصبوا إليه من عوامل جذب أو تنمية سياحية.

وبمعنى آخر إذا كان هذا هو حال البلاد في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي فمع اختلاف العصر ونحن في القرن الحادي والعشرين، ومع اختلاف المسميات من "مكاري" إلى وسائل المواصلات المتوافرة في عصرنا هذا، إلا أن الدارس يجد أن نفس الأسلوب المعيشي ونفس المعتقد السائد لدينا منذ عصر المقريزي، كذلك زمن زيارة ابن سعيد، فالمكاري أخذ يطير بدابته وعليها ابن سعيد لكي يصل إلى الفسطاط في أسرع وقت، وذلك ما يتم إتباعه عند استخدام وسائل المواصلات الحالية "منخفضة التكاليف" في عصرنا الحاضر، دون الاعتبار إلى راحة الفرد أو المستخدم لها كوسيلة مؤجرة، الأمر الذي جعل مفهومنا أنه من الأفضل السير على الأقدام من احتمالات التعرض لأمور لا ترضي الشخص الحاصل على تلك الخدمة.

وعن ذلك ما يذكر ابن سعيد، "فدفعت إلى المكاري أجرته، وقلت له إحسانك إليّ أن تتركني امشي على رجلي، ومشيت إلى أن بلغتها "الفسطاط"،[١٤] ويفهم من قوله ابن سعيد: أن أعيان مصر كانوا يركبون الحمير كوسيلة رخيصة للمواصلات، في حين أنه أمر يأنفه أهل المغرب فيركبون الجمال والخيل والبغال وغيرها من الدواب، كذلك فإن ابن سعيد فضل السير على الأقدام عن الاستمرار في ركوب الحمار بهذا الشكل السريع مما فيه خطورة، واتساخ للثياب، وعفرة التراب، الذي يثيره سرعة ركض الحمار.

وفي مواضع أخرى يصف عادات المجتمع عند وصفه للجامع العتيق رغم ما شعر به من ارتياح وطمأنينة عند دخوله للمسجد، وعلل ذلك لوقوف الصحابة رضوان الله عليهم في ساحته عند انشائه، كما وصف ابن سعيد عراقة الفسطاط وحضارتها وأسواقها العامرة، إلا أن طبائع بعض الأهالي تحجب هذا الرونق وتضفي عليه صبغة تخفي حقيقة جمال الفسطاط، مثال ذلك ما كان من أمر وصف ابن سعيد: "إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع .. وأبصرت العامة رجالاً ونساء قد جعلوه معبرًا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من الباب إلى باب يقرب عليهم الطريق، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك، والناس يأكلون منه في أمكنة عديدة غير محتشمين، وفضلات مآكلهم مطروحة في صحن الجامع، والصبيان يلعبون وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة، .... إلا أن مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده في جامع اشبيلية مع زخرفته".[١٥]

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ونستخلص من النص:

أن من عادات بعض أهالي الفسطاط اجتياز الجامع من باب إلى آخر تيسرًا لهم في العبور من موضع لآخر، وأن الباعة ينتشرون عند بابه بأنواع المأكولات والحلوى، وأن من عاداتهم السيئة أكل الطعام داخل المسجد دون استحياء وترك ما يتخلف عن ذلك بصحن المسجد، من غير الشعور بأدنى استحياء، والأهم من ذلك أن هذا وإن كان فيه بعض المبالغة من قبل ابن سعيد، أو لعله قد يكون هذا الانطباع يرجع إلي اختلاف الثقافات مما يعطي للشخص مردود عكسي في أمور غير معتاد عليها، بمعنى قد يكون قول ابن سعيد به بعض المبالغة، إلا أن التأكيد على صحة ما جاء به رغم أنه أمر مؤسف، إلا أننا نعاني حتى وقتنا الحاضر من عادات مماثلة لدى بعض الأهالي مع اختلاف العصر والمسميات، هذا مما يدعونا إلى تصديق وصف ابن سعيد إلى حد كبير.

والأهم هو دراسة تلك الظاهرة ومحاولة القضاء عليها، فهي أسوأ من ظاهرة السحابة السوداء، أو بالأصح ضرورة القيام معا بالدراسة البيئية مع الدراسة الاجتماعية مع تصحيح المفاهيم حتى نجتاز ذلك الأثر الاجتماعي السيئ المستمر منذ أكثر من خمسة قرون، وهو أمر جدير بالدراسة والاهتمام في ضوء ما نناشده من تنمية سياحية. فإذا كان ما رواه المؤرخون من مثالب العادات الاجتماعية، إلا أن الأمر لا يزال باقيًا حتى كتابة هذه السطور، ومستمر حتى زوال المؤثر في القرن الحادي والعشرين، فإذا كان ذلك انطباع المؤرخين مع استمراره مع اختلاف العصور والمسميات والملابسات فكيف يكون انطباع من يأتي إلينا من السياح فأرضنا التي وهبنا الله إياه بكل ما فيها من طبيعة جغرافية(١٦) وحضارية وآثارية وتراثها وما به من قيمة على مر العصور، وحتى لا يضيع من الناس ذلك هباءً بسبب قلة قد لا تدرك مدى الإساءة التي تلحقها بالبلاد، وللأسف يصبح تعميمًا مغلوطًا على أهل البلاد، الأمر الذي يجعل الزائر يشعر بعدم الارتياح لما يراه من بعض العادات التي تخفي جمال وعراقة البلاد. بل وتؤثر على بيئتها واقتصادها وكيانها، فإذا كان أمر الأزقة ضيقة، فكان الأجدر بها أن تكون غير مزدحمة، وإذا كانت كذلك فالأحرى بها أن تكون نظيفة مرتبة، فقلة الإمكانيات المعيشية أمر لا يتعارض مع النظافة والأسلوب المعيشي المنظم.

فكيف لنا أن نتطور ونلاحق الركب الحضاري والتنمية السياحية، وعاداتنا الاجتماعية كما هي منذ أكثر من خمسة قرون، من إهمال وعدم الحرص على نظافة وحسن استخدام لما لدينا من تراث وحضارة وتاريخ، وقد تزداد الدهشة مع ما أشارت إليه النصوص التاريخية السابقة أن هذه العادات السيئة لم تكن أثر كساد اقتصادي، أو أحوال معيشية متردية، أو أن ذلك الاستخدام السيئ للنيل، إثر مجاعات مثلاً أو ما شابه، بل هي أحوال معيشية عادية، لذلك كانت الدراسة ترصد تلك العادات محاولةً إلقاء الضوء على بعض العادات الاجتماعية الرديئة لتوضيح مدى أثرها السلبي على البيئة، ومن ثَم على التنمية السياحية بصفة عامة.

فكانت بساطة المصريين وتلقائياتهم وحسن استقبالهم وكرم ضيافتهم هو الأساس الذي تناشده، مع التأكيد على أهمية أثر العادات الاجتماعية الجيدة والارتقاء بها من أجل سلامة البيئة المصرية. وأن السحابة السوداء ظاهرة حدثت في مصر منذ أكثر من نصف قرن وأثبتت النصوص السابقة الذكر، أن العادات الاجتماعية السيئة تؤدي إلى تلوث بيئي، مما يترتب عليه فساد ومؤثرات سلبية على المناخ، مما له عظيم الأثر على اقتصاد البلاد وتنميتها السياحية. مثال ذلك ما كان من أمر الفسطاط، فهي منخفضة عن الأرض نوعًا ما، ويحدها من الشرق جبل المقطم، وهذا في حد قول المقريزي سببًا كافيًا لسخونة أرضها من الناحية الجغرافية. أما من حيث البناء، فإن الفسطاط ضيقة الشوارع والأزقة، مزدحمة الأعداد عامرة بأهلها، كما أن عادات بعض الأهالي المعيشية، وسوء استخدامهم لمياه النيل من حيث إلقائهم للمخلفات الآدمية والحيوانية فيه، وفي نفس الوقت الاعتماد على مياهه للشرب، وغيرها من العادات البيئية كالازدحام في الطرقات، وتكدس المباني، وتراكم السكان في ذلك الشريط الضيق على النيل بالفسطاط.

فإذا ما اجتمع كل ما سبق من عوامل جغرافية، وجغرافية سكانية للفسطاط، مع ضيق شوارع وأزقة الفسطاط، والعادات المعيشية السيئة بالإضافة للازدحام، فمن البديهي أن يؤدي ذلك ليس فقط لسحابة سوداء بل لتلوث بيئي لا يحمد عقباه لذلك نرى أن سوء العادات الاجتماعية تؤثر بالسلب على الحياة البيئية مما ينتج عنه آثار وخيمة وتغيير للمناخ، مما له عظيم الأثر على اقتصاد البلاد وتنميتها بصفة عامة، والسياحية بصفة خاصة.

نتائج الدراسة

ثبت بالدراسة أن ظاهرة السحابة السوداء ظاهرة عرفتها مصر منذ أكثر من خمسة قرون، وأنها ظهرت لتعدد حدوث بعض السلبيات والمظاهر الاجتماعية السيئة.

- كما أثبتت الدراسة أن اجتماع العديد من العوامل، منها الجغرافية والاجتماعية والبيئية، أدت إلي تكدر الأجواء وظهور ما يعرف بالسحابة السوداء.
- كثرة المستوقدات، وتصاعد أدخنتها في سماء الفسطاط ساعد على ظهور تلك الظاهرة.
- موقع جبل المقطم في شرق الفسطاط حجب عنها تجدد الهواء بالقدر الكافي مثل ما كان الحال مع باقي مدن مصر في ذلك الوقت، كالقطائع والقاهرة.
- كما ثبت بالدراسة أن سبب ظهور السحابة السوداء لا يتعلق باحتراق أنواع القش كقش القصب أو القش بصفة عامة، حيث أنه كان يستخدم في أغراض البناء كأحد طبقات

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

التكوين البنائي في ذلك الوقت بالتبادل مع الطوب "طبقة من قش القصب وطبقة من الطوب.

- ثبت بالدراسة أيضًا أن أجواء الفسطاط خاصةً في فصل الصيف هي التي يظهر فيها ما يعرف بالسحابة السوداء لكثرة غبارها وسخونة أرضها، كذلك الملوثات البيئية الناتجة عن سوء العادات الاجتماعية لبعض الأهالي مع كثرة الازدحام وضيق الشوارع والأزقة.
- كما أوضحت الدراسة أن تلك الظاهرة "السحابة السوداء" قد ثبتت في نصوص المؤرخين، وكتب الأدباء، وعلق على ذلك الشعراء في رصد للأدب المصري في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.
- كذلك ثبت بالدراسة مدى التشابه الذي ورد في النصوص التاريخية، والملابسات المؤدية لظهور السحابة السوداء واستمرارها إلي وقتنا الحاضر نتيجة لاستمرار العادات الاجتماعية السلبية مع اختلاف المسميات والملابسات، إلا أن الأثر نفسه الخاص بالعادات الاجتماعية على البيئة المصرية قد أثر بالسلب على التنمية بصفة عامة، والتنمية السياحية(١٧) بصفة خاصة، وهو أمر لزم علينا رصده، وتقديمه، ودراسته محاولين وضع أيدينا على حقيقة تلك الظواهر والعمل على تحسينها.

توصيات الدراسة

- توصي الدراسة بالعمل على التوقف عن العادات الاجتماعية السيئة والرديئة التي تتسبب في فساد البيئة عن طريق تشديد العقوبات الملزمة للأفراد، وعن طريق وسائل الإعلام، وكذلك عن طريق التوعية الإرشادية للطلاب، وغيرها من الأمور الرادعة والواجبة.
- كما توصي الدراسة بالمزيد من الأبحاث والدراسات البيئية والاجتماعية والجغرافية وغيرها لبيان مدى أهمية تحسين المفاهيم والعادات الاجتماعية، خاصةً لدي الطلاب في مراحل التعليم الأساسي، مع توضيح علاقتها الوثيقة بالشئون البيئية والأحوال الاقتصادية وتنمية البلاد.
- توصي الدراسة بالمزيد من تنمية المجتمع، خاصةً إذا تطلعنا إلى تنمية حقيقة للبلاد في شتى المجالات، وفي مقدمتها التنمية السياحية كأحد ركائز الاقتصاد القومي.

الهوامش:

(١) المقريزي: تقي الدين ابن أحمد المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**. – ج٢- نسخة مكتبة الإسكندرية.

(٢) **الفسطاط**: هي أولى العواصم الإسلامية في مصر، تم بناؤها على يد عمرو بن العاص عند فتح مصر سنة ٢١هـ/٦٤١ م في الموضع الذي يقع بين النيل والمقطم. (ابن عبد الحكم، **فتوح مصر وأخبارها**، ص ٤٧).

(٣) **القاهرة**: هي رابع حواجز مصر الإسلامية، تم بناؤها على يد القائد جوهر الصقلي قائد قواد الدولة الفاطمية سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م. (فاتن محمد الشيخ، **الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية الحضارية في مصر في العصر الفاطمي**، دار نشر نوابغ الفكر ٢٠٠٨، ص ١٠.

(٤) كان ظهور كبار الأطباء المسلمين أصحاب الرأي والنظر، قد ازدهر في خلافة المأمون العباسي، لاهتمامه ورعايته بهذا الأمر. (**تاريخ الطب الإسلامي**، تحرير: أحمد إبراهيم الهواري، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٥، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية). **من تاريخ الطب الإسلامي**، قاسم غني – تاريخ البيمارستانات في الإسلام، أحمد عيسى بك.

(٥) المقريزي، **الخطط**، ج ٢، ص ٣٣٩.

(٦) عندما شرع جوهر الصقلي في بناء مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ / ٩٦٩م وذلك لما رأى أن فسطاط مصر عامر بأهلها الموضع المعروف بالقاهرة فيما بعد. (أبو الحسن، **النجوم الزاهرة**، ج ٣).

(٧) المقريزي، المصدر السابق نفسه.

(٨) المقريزي، المصدر السابق، ص ٣٤٠.

(٩) المقريزي، المصدر السابق نفسه.

(١٠) المقريزي، المصدر السابق نفسه.

(١١) ابن حوقل، **صورة الأرض**، نقله المقريزي عنه في خططه، ج، ٢ ، ص ٣٤٠.

(١٢) **الغُمر**: هو دسم اللحم (ديوان ابن وكيع/٦٦) وابن وكيع من شعراء القرن الرابع المصري الذين وصفوا الطبيعة المصرية وبيئتها على مدار فصول السنة، (عوض على الغباري، **شعر الطبيعة في الأدب المصري "القرن الرابع الهجري"**، طبعة الهيئة المصرية للكتاب سنة ٢٠٠٦، ص ١٠٦ ، ١٠٧).

(١٣) المقريزي، **الخطط**، ج ٢، ص ٣٤١. ابن حوقل، **صورة الأرض**، ابن سعيد الأندلسي، ابن عبد الحكم، **فتوح مصر وأخبارها**، تقديم وتحقيق محمد صبيح.

(١٤) ابن سعيد الأندلسي، عند وصفه لمصر الفسطاط، نقلها عنه المقريزي في خططه، ج ٢، ص ٣٤٠ ، ٣٤١.

(١٥) المصدر السابق نفسه.

(١٦) فاتن محمد الشيخ، **دراسات في جغرافية مصر السياحية**، دار العالم العربي للطباعة والنشر ٢٠٠٨، ص ٣٥ وما بعدها.

(١٧) أحمد إسماعيل علي، **دراسات في جغرافية المدن**، القاهرة سنة ١٩٧٨ – صلاح الدين عبد الوهاب– **أساس تنمية السياحة في مصر**، دراسة مقدمة إلى وزارة السياحة، ١٩٨٢.